مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 08 عدد: 02 السنة 2022 E-ISSN:2588-2325

الوباء في زمن العلمنة: في التفاوض بين الصحة والدين على هامش جائحة كورونا

The epidemic in the time of secularization: In the negotiation between health and religion on the margins of the Corona pandemic

محمد فاضل*، جامعة سيدي محمد بن عبد الله-المغرب، mohamed.fadil1@usmba.ac.ma

تاريخ الإرسال: 2022/09/08 تاريخ القبول: 2022/12/08 تاريخ النشر: 2022/12/30

ملخص:

تتساءل هذه الدراسة عما إذا كانت العلمنة الرسمية لقطاع الصحة في أغلب بلدان العالم لصالح أشكال التدبير العلمية الحديثة، قد ساهمت، بالتوازي مع ذلك، في إحداث تراجع للدين لصالح العلم على مستوى تمثل أصل المرض وصياغة سبل الخلاص أيضا في زمن الوباء، ثم عن مدى تأثير القرارات المتخذة من طرف الأنظمة الصحية المدنية في شقها الذي يخص المجال الديني (إغلاق دور العبادة، منع التجمعات الدينية...) على البنيات التعاقدية المرتبطة بتدبير المسألة الدينية في البلدان الأقل أو الأكثر علمنة (الحريات الدينية، ضمان حقوق المتدينين في ممارسة معتقداتهم...).

للإجابة على هذه الأسئلة، تقوم الدراسة بتحليل وقراءة، وفق مقاربة تتموقع في ملتقى سوسيو-أنثروبولوجيا الدين والصحة، بعض التعبيرات الدينية المنتجة إزاء جائحة كورونا، والتي تم رصدها وإعادة تجميعها انطلاقا من مادة إعلامية متنوعة، وذلك وفق مسار ينتقل من السياق الدولي العام الذي فرضته عولمة الجائحة إلى سياقات محلية لها خصوصياتها التاريخية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: دين، صحة، علمنة، جائحة، كورونا

* المؤلف المرسل

Abstract:

This study examines how the secularization of the health sector in favour of modern forms of scientific management has contributed, at the same time, to cause a decline of religion in favour of science in terms of the representation of the origin of the disease and the formulation of the ways of salvation in the time of pandemic. It also focuses on the impact of the decisions taken by civil health systems concerning religious matters (closure of places of worship, prohibition of religious gatherings, etc.) on the contractual structures associated with the management of the religious field in the least or more secularized countries (religious freedoms, guarantee of the right of religious persons to exercise their beliefs, etc.).

Using an approach that is at the crossroads of the socio-anthropology of religion and health, the study explores some of the religious expressions produced about the pandemic collected from the exploration of a wide and diverse media material. Data analysis starts from approaching the general international context imposed by the globalized aspect of the pandemic to local contexts with their own historical and cultural particularities.

Key words: religion, health, secularization, pandemic, Corona.

مقدمة:

حتى وإن كانت الأوبئة والجوائح تبدو أمرا متعلقا بالدرجة الأولى بالصحة العامة والخاصة للأفراد والجماعات، فإن الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية التي اهتمت بها تنبئنا بأن الدين كان في الغالب الأعم المجال الأكثر تدخلا وتأثيرا في تمثل أصلها وتلمس سبل الخلاص منها. وهو ما كان يتماشى وهيمنة الديني في المجمل على الصحي بدءا بانشغال رجال الدين، من بين ما كانوا ينشغلون به، بمهمة معالجة الأرواح والأجساد ووصولا إلى إشراف المؤسسات الدينية في العديد من الأديان، وحتى أزمنة قريبة، على إنشاء وتدبير المستشفيات بل واشتغال عدد من رجالها ونسائها بمهن الطب والتمريض (Dericquebourg, 1998 ; Dufour, 2017 ; Chaouky, 2019 ; Lorin, 2019).

اليوم، تطورت الحياة الإنسانية على كافة مستوياتها وفي كل مجالاتها، والصحة من بين أهم هذه المجالات التي أصبحت، وإن بدرجات متفاوتة، أكثر خضوعا للمعرفة العلمية وللعقلنة في التناول والتدبير (Faure, 2013 ; Guilfoyle, 2012). ومع ذلك، فلا يزال هذا المجال في التمثلات الاجتماعية لأفراد وجماعات بشرية كثيرة ومتعددة، يسمح باستخدام مفاهيم وأساليب ذات أصل وامتداد دينيين من قبيل الهبة والتبرك والبركة والرقية والحرز والتميمة والصوم والصلاة والتأمل والعلاج الروحي (Harold, 2012)...

فيما على المستوى العام، تتواجه أطروحات نهاية الديني مع أطروحات عودته (Gauchet, 1998, Roy, 2008, 2019) بينما تقول عائلة ثالثة من الأطروحات بكون الدين لم يغادر أصلا هذه المجتمعات حتى يعود إليها وأن كل ما في الامر أنه قد غير قليلا أو كثيرا من أنماطه وتمظهراته وأشكال تعبيره في المجتمعات الأكثر أو الأقل علمنة (Corm, 2008). في هذا السياق، قد يشكل زمن الوباء مجالا متميزا لمحاولة قراءة وفهم تردد المجتمعات الأكثر أو الأقل علمنة في الحسم بشأن الدور الذي لازال يلعبه الدين في الحياة العامة والخاصة للناس بشكل عام على مستوى مجال الصحة على وجه التحديد (Gariépy, 2005 ; Auchet, 2001).

لقد طرحت جائحة كورونا، إضافة لسؤال قدرة وكفاءة الأجهزة العقلانية الحديثة في إدارة إشكالية الصحة في فترة انتشار المرض، سؤالا أكثر تعقيدا يتعلق بما إذا كانت علمنة قطاع الصحة، التي أفضت إلى تخليص هذا القطاع من هيمنة المؤسسات الدينية لصالح المؤسسات وأشكال التدبير العلمية الحديثة، قد ساهمت، بالتوازي مع ذلك، في إحداث تراجع للدين لصالح العلم على مستوى تمثل أصل المرض وصياغة سبل الخلاص أيضا. بهذا المعنى، هل أسهمت الهيكلة والعقلنة الشديدتين للسياسات الصحية على المستويات المحلية من جهة (الأنظمة المحلية للصحة) والدولية من جهة أخرى (المنظمات الدولية من قبيل منظمة الصحة العالمية) في مقابل تراجع تأثير مؤسسات الدين ورجاله في إعادة الجائحة إلى دائرة الصحة بمعناها العلمي والتقني الخالص، أم أن الصورة المأساوية والفناءوية للأوبئة والجوائح كما تناولتها السرديات الدينية الكبرى لازالت تحتل مكانا ما في الذاكرة و في الوجود البشريين، وهي ليست بحاجة سوى لسياق شبيه بهذا الذي أنتجته جائحة كورونا لتعود للتحكم بتمثلات وسلوكات البشر ؟

ثم، ارتباطا بهذا السياق، ما مدى وأشكال تأثير أنماط تدخل الأنظمة الصحية الحديثة في تدبير الجائحة (فرض الحضر الصحي، منع التجمعات وإغلاق المؤسسات وتعليق الأنشطة بما فيها الدينية...) على البنيات التعاقدية المرتبطة بتدبير المسألة الدينية في البلدان الأقل أو الأكثر علمنة (الحريات الدينية، ضمان حقوق المتدينين في ممارسة معتقداتهم...)؟

تتوخى هذه الدراسة معالجة الأسئلة أعلاه على مستويين اثنين. يقوم المستوى الأول على استدعاء متون نظرية عامة، تغطي مختلف ظروف وسياقات المفاصلة والمفاوضة بين الديني والصحي ارتباطا بأزمنة الأوبئة والجوائح بشكل خاص. أما المستوى الثاني فيروم استثمار هذه المتون، وفق مقاربة تتموقع في ملتقى سوسيو-أنثروبولوجيا الصحة والدين، في قراءة بعض التعبيرات الدينية التي رافقت الجائحة والتي تم رصدها وإعادة تجميعها انطلاقا من تحليل مادة إعلامية متنوعة، تغطي بالأساس فترة الأشهر الست الأولى من سنة 2020 و التي تجسد من وجهة نظرنا، الفترة الأكثر إثارة في مسار اللقاء/الصدام بين الجائحة و العالم عبر وساطة الأنظمة الصحية و السياسية، وذلك وفق خط ينتقل من السياق الدولي العام الذي فرضته عولمة الجائحة إلى سياقات محلية لها خصوصيتها التاريخية والثقافية.

تستثمر الدراسة في قراءة هذه التعبيرات بشكل خاص الخطاطة التي اقترحها الباحث الأمريكي دافيد. م أولستر (David M. Olster)، في كتابه الهزيمة الرومانية، الإجابة المسيحية والبناء الأدبي لدى اليهود (Olster, 1994)، لتفسير القراءات المأساوية للأوبئة منذ العصر الروماني، والتي تتمثل فيما يلي:

(الإثم------العقاب------التوبة------النجاة)

حيث يوجب الإثم حسب هذه الخطاطة استحقاق العقاب فيما تؤدي التوبة إلى الخلاص ورفع البلاء وصلاح الأمر. هكذا تقدم لنا الخطاطة إذن تأطيرا عاما لسؤال تمثل أصل الوباء (الإثم--العقاب) من جهة، وتمثل سبل الخلاص منها (التوبة----النجاة).

1. زمن الوباء: الصحي موضوعا للديني

1.1. حين تغضب الآلهة

في كتابه عن حياة أبولونيوس التياني، يحكي الخطيب الإغريقي فيلوستراتوس قصة الكارثة التي ضربت مدينة أفسس حين حل بها طاعون رهيب هدد وجود واستمرار المدينة بأكملها، فكان أن أشار رجال الدين إلى ضرورة تقديم قربان من أجل تهدئة غضب الآلهة. وقد قام أبولونيوس، بحسب رواية فيلوستراتوس، بتحديد القربان المطلوب في شخص متسول غريب تم رجمه بالحجارة حتى الموت. وقد تبين للجماعة الغاضبة فيما بعد بأن القربان الذي تم رجمه لم يكن في الواقع سوى شيطان متخف في صورة متسول أعمى وعجوز، وذلك حين اختفى جسده مباشرة بعد عملية الرجم، كما اختفى الوباء من المدينة (Philostrate, 2007, pp.198-199).

تختزل هذه الحكاية تاريخا بشريا طويلا من تمثل البشر لمصدر الكوارث العظمى وعلى رأسها الأوبئة على أنها ذات مصدر إلهي. إنها، بهذا المعنى، تجسيد لغضب إلهي له سلطة قهرية على البشر الآثمين المتعدين للخطوط المرسومة سلفا من قبل الآلهة و تعاليمها ولكنها، في الآن ذاته، امتحانا لقدرة المؤمنين الأخيار على الصبر والثبات على الإيمان رغم الشدائد، ولقدرة الآثمين الأشرار على فهم الرسالة وتلمس طريق التوبة والخلاص قبل فوات الأوان (Schreiber, 2020). كثيرا إذن ما يتم تناول إسقاطات الأوبئة على المستوى الصحي كنتيجة بالمعنى التقني للفظ، أما السبب فيجب تلمسه في السرديات الدينية الكبرى حيث يلعب الوباء الدور الأعظم في سيناريوهات الفناء والعقاب الإلهيين تجاه البشر الضعفاء والمذنبين (Lévy, 2013). إنه النهاية والبداية ليس بالمعنى الرمزي فحسب بل وبالمعنى المادي للكلمتين أيضا.

وقد ورثت الأديان التوحيدية هذه الرؤية الموجودة سلفا في الأديان المتعددة الآلهة. هكذا، نجد في النصوص التوراتية والإنجيلية كما في النصوص الإسلامية قصصا كثيرة تدعم طرح الأصل الإلهي للبلاء كعقاب من جهة وكامتحان من جهة أخرى. ففي سفر الخروج يخاطب الرب يهود مصر بقوله " فَإِنِّي أَجْتَازُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هذِهِ اللَّيْلَةَ، وَأَضْرِبُ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. وَأَصْنَعُ أَحْكَامًا بِكُلِّ آلِهَةِ الْمِصْرِيِّينَ. أَنَا الرَّبُّ."(سفر الخروج 12.12). فيما يخاطب الرب سليمان قائلا "إِنْ أَغْلَقْتُ السَّمَاءَ وَلَمْ يَكُنْ مَطَرٌ وَإِنْ أَمَرْتُ الْجَرَادَ أَنْ يَأْكُلَ الأَرْضَ وَإِنْ أَرْسَلْتُ وَبَأً عَلَى شَعْبِي فَإِذَا تَوَاضَعَ شَعْبِي الَّذِينَ دُعِيَ اسْمِي عَلَيْهِمْ وَصَلُّوا وَطَلَبُوا وَجْهِي وَرَجَعُوا عَنْ طُرُقِهِمِ الرَّدِيئَةِ فَإِنِّي أَسْمَعُ مِنَ السَّمَاءِ وَأَغْفِرُ خَطِيَّتَهُمْ وَأُبْرِئُ أَرْضَهُمْ" (سفر أخبار الأيام الثاني 7: 13-14).

في نفس هذا الاتجاه، تسرد إحدى سور القرآن قصة قوم خرجوا من ديارهم مخافة الموت فرارًا من الطاعون حسب قول بعض أشهر المفسرين (الطبري): "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " (سورة البقرة، الآية 243). فيما جاء في المرجع الأهم للحديث في الإسلام (صحيح البخاري) أن عائشة سألت النبي محمد عن أمر الطاعون فأجابها "أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونِ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ".

في كتابه *الهزيمة الرومانية، الإجابة المسيحية والبناء الأدبي لدى اليهود* (1994)، يخضع الباحث الأمريكي ديفيد أولستير (David Olster) هذه القراءة المأساوية للأوبئة لخطاطة عامة يقدمها كالتالي: الإثم_العقاب/التوبة_الصلاح. هكذا يوجب الإثم استحقاق العقاب، فيما تؤدي التوبة إلى الخلاص ورفع البلاء وصلاح الأمر. ويرى أولستر أن نجاعة هذه الخطاطة في التعبير عن تمثل أصل

الوباء وسبل الخلاص منه داخل حدود المجال الديني تبلغ أوجها مع المسيحيين، البيزنطيين بالأساس، في القرن السابع الميلادي الذي شهد تظافر مجموعة من البلاءات، من قبيل الغزو الفارسي ثم الغزو الإسلامي، إضافة إلى طاعون جستنيان الذي كان لايزال حاضرا في الذاكرة المسيحية، وهي البلاءات التي واجهها رجال الدين المسيحيين بتفسيرات تحتل مركزها نظرية الغضب الإلهي الموجه ضد البشر الآثمين والذي لا خلاص منه إلا بالتوبة والعودة إلى طريق الرب أملا في استرضائه لرفع غضبه (Olster, 1994).

في نفس الاتجاه، يذكر المؤرخ المتخصص في التاريخ الديني الغربي نيكولا بالزامو (Nicolas Balzamo)، أن فترة الطاعون الأسود الكبير الذي اجتاح العالم الروماني في حوض البحر الأبيض المتوسط قد عرفت ارتفاعا مهولا لطقس جلد الذات (autoflagellation) بالمعنى المادي وليس الرمزي، وذلك كتعبير من الناس عن الإقرار بالآثام، وسعي منهم نحو التطهر رغبة في الخلاص، إلى درجة أن البابوية قد تدخلت لمنع هذا الطقس (Balzamo, 2020). بل إن بعض التأويلات الدينية دفعت الأمور إلى حدها الأقصى في التعاطي مع الوباء فجعلت منها مرادفا للفناء والنهاية. في هذا السياق، يذكر مؤرخ آخر للمعتقدات الغربية هو جان دوليمو (Jean Delumeau) في كتابه *الخوف في الغرب* (1978)، أن تمثل الغضب الإلهي في التعاطي مع الوباء كثيرا ما كان مقترنا في التاريخ الغربي بتفسيرات فناءوية (apocalyptique) تحيل على نهاية العالم الأرضي وبداية العالم السماوي؛ وهو أمر يتوافق مع بعض التصورات القوية الحاضرة لدى بعض فصائل المسيحية الإنجيلية الأمريكية بالأساس، والتي تستعجل عودة المسيح وقيام مملكة الرب (Delumeau, 1978, p. 262). وقد وجد أصحاب هذه التأويلات الدينية المأساوية، في العصر الحديث، ضالتهم في داء السيدا الذي انتشر بدرجة كبيرة في سنوات الثمانينيات.

1.2. ما قبل الجائحة: سابقة السيدا

لقد جسدت الطبيعة البيولوجية لمرض السيدا وأشكال انتقاله عن طريق العلاقات الجنسية، إضافة إلى ما ذكر عن انتشاره الكبير في الثمانينيات في أوساط المثليين حجة قوية لأنصار نظرية العقاب الإلهي للآثمين من أجل تدعيم موقفهم (Lévy, 2013). في هذا السياق يسرد عالم الأنثروبولوجيا الكندي جوزيف جوزي ليفي في مقالته "الفناء في تمثلات وباء السيدا: من الديني إلى الإعلامي"، مجموعة من مواقف بعض المؤسسات الإنجيلية الأمريكية كالكنيسة الكونية التي رأت في السيدا طاعونا جديدا يجمع بين التمرد على الرب والتأثير الشيطاني، ولكنه مع كل ذلك يبشر بعودة المسيح الذي سينهي الآثام والآلام ويقيم دولة الرب على الأرض. وقبل ذلك، سيفصل الوباء بين

طائفتين متعارضتين: الأولى زائغة عن طريق الرب، وستصبح عرضة للمزيد من الأوبئة والمرض بما يؤدي بها إلى قطيعة مطلقة مع سبيل الخلاص؛ فيما الثانية ممتثلة لمقولات الرب ومنعمة برضاه (نفس المرجع).

وقد انتشرت هذه الأفكار مع الدعاة الإنجيليين (البروتستانت) النجوم من قبيل بات روبرتسون (Pat Robertson) وجيري فالويل (Jerry Falwell) الذين تعودوا، حتى قبل ظهور السيدا، مهاجمة المثليين واعتبار ما يقومون به خطيئة كبرى ستؤدي بالبشر كافة إلى الهلاك، فلم يكن هذا المرض/الوباء إذن سوى تأكيدا لأفكار معدة ومهيكلة مسبقا تمتد بجذورها في السرديات الدينية المسيحية بشكل عام. على الواجهة الكاثوليكية، يتسم الموقف من مرضى ومرض السيدا بغير قليل من التعقيد على الرغم من كونه أصبح في العقدين الأخيرين أقل تشددا مما هو عليه الأمر لدى الكنائس الفناءوية البروتستانتية.

فعلى الرغم من استثمار الكنيسة الكاثوليكية ، كما تشير لذلك تقارير لبرنامج الأمم المتحدة المعني بمواجهة السيدا، لجزء مهم من بنيتها الاستشفائية في الاهتمام بالمصابين بهذا المرض في الدول الأكثر إصابة بالمرض في القارة الإفريقية على وجه التحديد (UNAIDS, 2013)، فإن جزءا مهما من مقاربة هذه الكنيسة للمرض لا يخدم منع انتشاره وفق الطرق الصحية العلمية، وذلك نتيجة لمعارضتها استخدام العازل الطبي في العلاقات الجنسية وترويجها إلى أن المدخل الصحيح والوحيد لمواجهة هذا الوباء هو التقيد بمبدأ العفة والزواج الأحادي كما تقره الكنيسة (التوبة كطريق للخلاص)[†].

ونجد لهذه التصورات مقابلات في المجالين الإسلامي واليهودي أقل أو أكثر تشددا بحسب درجة أرثودوكسية المصدر. في هذا السياق، يصرح الطبيب والحاخام اليهودي الأكبر السابق في إنجلترا عمانوئيل جاكوبوفيتس (Immanuel Jakobovits) أن السيدا نوع من العقاب الإلهي موجه

[†] بدا وكأن هناك اختراق في موقف الكنيسة الكاثوليكية من العازل الطبي مع البابا بينيديكتوس السادس عشر حين رد على سؤال من الصحفي الألماني بيتير سيفالد حول ما إذا كان بالإمكان القول بأن "الكنيسة الكاثوليكية ليست بشكل مطلق ضد استخدام الواقي؟" رد البابا انه يجيز هذا الامر فقط "في بعض الحالات عندما تكون النية الحد من مخاطر العدوى، وقد يكون هذا الامر الخطوة الاولى لفتح الطريق امام حياة جنسية اكثر انسانية تعاش بشكل مختلف." وقد نشر الحوار في كتاب نور العالم (2010) الذي جمع فيه الصحافي المعني مجموعة حوارات مع البابا. غير أن الناطق الرسمي باسم الكنيسة سرعان ما وضّح لاحقًا بأنّ استخدام العازل لا زال يعتبر فِعلًا لا أخلاقيًّا، وأنّ البابا لم يقصد توضيح موقفه من مشكلة العازل في العموم.

ضد الآثمين من المثليين الجنسيين ومن الذين لا يحترمون المؤسسات الدينية للزواج (Freudenthal, 1998). بينما، على الواجهة الإسلامية، يفسر يوسف القرضاوي وهو أحد أهم المراجع الإسلامية السنية في العالم، الأمر كالتالي:

أولا أنا أريد أن أذكر السبب الأول لشيوع هذا المرض ونشوئه أيضا هو الانحراف، الانحراف عن فطرة الله وعن شرع الله سبب هو الممارسة الجنسية المحرمة {ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً} قد حذر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث من هذا الوباء حينما قال في حديث ابن ماجة والحاكم وغيره قال "ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعملوا بها علانية إلا سلط الله عليهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا" حتى الطاعون هم يسموه الطاعون الأبيض فالسبب الأساسي الذي أنشأ هذا المرض هو يسموه نقص المناعة المكتسبة لأن ربنا جاعل في جسم الإنسان جند حُراس يعني يدافعون عنه من كل أجسام غريبة مضادة الإنسان أصبح قلعة بلا حراس فهذا نتيجة الانحراف وشيوع الفاحشة (القرضاوي، قناة الجزيرة، برنامج الشريعة و الحياة).

وقد تعرض هذا التوجه من قبل العدد الأكبر من رجال الدين ومؤسساته، والقاضي بوصم مرضى السيدا وموضعهم في عمق نظرية العقاب الإلهي إلى انتقادات شديدة من قبل المنظمات المختصة التي تقف على خط المواجهة مع الوباء، كمنظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة لمواجهة السيدا إضافة إلى منظمات المجتمع المدني المحلية والدولية. وهي الانتقادات التي ستؤدي ببعض التنظيمات الدينية إلى تليين موقفها جزئيا أو كليا. وهكذا اندمجت مجموعة من هذه التنظيمات والمؤسسات الدينية بتشجيع من الأمم المتحدة في حملات للتخفيف من حدة الإسقاطات الاجتماعية والدينية السيئة المرتبطة بمرضى السيدا بإفريقيا على وجه الخصوص[‡].

على أن تغلغل الدين في عمق السياق الذي ينتجه الوباء لا يتوقف عند تمثل منبعه عن طريق ربطه بغضب الآلهة بل يتعداه إلى تمثل سبل الخلاص منه. إذ حتى حين يصبح الوباء أمرا واقعا بما يفرضه ذلك من معطيات تقنية مرتبطة بالأساس بأشكال مواجهته والحد من درجة فتكه وتدبير

[‡] على سبيل المثال لا الحصر، سنة 2003، أصدرت ندوة الأساقفة الكاثوليك لإفريقيا الجنوبية والمشكلة من أساقفة جنوب إفريقيا، بوتسوانا وسوازيلاند ما أسمته نداء أمل إلى "شعب الله" إلى ضرورة تخفيف حدة الوصم الذي يتعرض له حاملو هذا المرض تسهيل ولوجهم للعلاج بدون إقصاء مبني على أسباب دينية اجتماعية. في نفس الاتجاه شجعت الأمم المتحدة مجموعة كبيرة من القيادات الدينية ومدرسي اللاهوت على إعادة قراءة النصوص الدينية المسيحية بالأساس على ضوء المعرفة العلمية المتوفرة حول مرض السيدا تحيين العقائد المسيحية التي تؤدي إلى وصم المرضى عزلهم إقصائهم (Interarts, 2010).

الأزمات الناتجة عنه؛ فإن الدين يحتفظ لنفسه بمكانة متميزة ضمن هذا النسيج الشديد التركيب والتعقيد. ذلك أن السعي للتحكم في الأوبئة والجوائح الجاثمة على المجتمعات يحتاج إلى تدابير كثيرة ومتنوعة كالحجر الصحي وإعادة تنظيم أشكال الحياة وأشكال التبادلات اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية. ويصبح أكثر تعقيدا حين تنحو هذه التدابير لإعادة هيكلة المجال الديني وفق مقاربة تنحو للرقابة الشديدة التي قد تصل درجة المنع (Paquet, 2014). وهو الأمر الذي له ما يبرره على المستوى المادي إذ تخلق التجمعات الدينية في دور العبادة مجالا حيويا لانتشار الفيروسات التي تشكل أصل الوباء بين المصلين/الحجاج أولا، ثم على نطاق واسع بين أفراد المجتمع حين يعود هؤلاء المؤمنون وقد حملوا المرض لمزاولة أنشطتهم الأخرى وللاختلاط بذويهم.

غير أن مراقبة ومنع الأنشطة الدينية، وإن كانت مبررة بالمعنى المادي والعلمي التقني، فهي غير ذات معنى ضمن التأويلات الدينية المصاحبة للأوبئة والجوائح. ذلك أن فكرة اعتبار الأوبئة بمثابة تعبير عن غضب إلهي سلط على البشر الآثمين، تقترح في طياتها طريقا للعودة متمثلا بالأساس في التوبة والاستغفار والتضرع لهاته الآلهة طلبا للصفح والغفران بما يجعل الظرف، وفق منطق المتدينين، أكثر طلبا لفتح دور العبادة والإقبال المكثف عليها بشكل جماعي بالأساس؛ لأن المصير المأساوي المشترك الذي جاء به الوباء يفرض طريقا مشتركا للخلاص أيضا. أما اعتبار التجمع في أماكن العبادة أمرا مسرعا لانتشار المرض، فهو أمر وإن كان يحترم منطق العلم بمعناه التقني، فهو أبعد ما يكون عن الإقناع في وفق منطق الإيمان الذي يرى في أماكن العبادة بيوتا للآلهة وملاذا أخيرا للخلاص. ولعل هذا ما يفسر الرفض الكبير الذي تقابل به عادة إجراءات إغلاق أماكن العبادة كإجراء وقائي زمن الأوبئة بما يعكس تقابلا بين منطقين: الأول علمي تقني، والثاني ديني ما ورائي.

وحري بالذكر أن هذه الإشكالات المتعلقة بتمثل أصل الوباء وسبل النجاة منه بما ينتجه ذلك من تقابل بين المنطقين المذكورين (التقني في مقابل الماورائي)، هذه الإشكالات، ليست بالضرورة جزءا من الماضي بقدر ما هي مكون من مكونات الحاضر أيضا، وهو ما بدا جليا على مستوى مختلف الإشكالات التي طرحتها جائحة كورونا في لحظات ذروتها التي وضعت عددا ضخما من ساكنة العالم تحت الحجر وحظرت من ضمن ما حظرته تنظيم الأنشطة الدينية زيارة دور العبادة. فيما تبقى من هذه الدراسة، سنقوم بمعالجة الإشكالات المذكورة انطلاقا من معطيات ميدانية تم تجميعها اعتمادا على مادة إعلامية متنوعة تغطي فترة الأشهر الست الأولى من سنة 2020 التي شكلت، من وجهة نظرنا، ذروة اللقاء/ الصدام بين الجائحة والعالم من خلال وساطة الأنظمة الصحية الحديثة، وذلك وفق مسار ينتقل من السياق الدولي العام الذي تفرضه عولمة الجائحة إلى سياقات محلية لها خصوصيتها التاريخية والثقافية.

2. زمن كورونا: الصحي في امتحان الديني

2.1. انضباط المركز و انفلات الهامش

على المستوى العام، تشير شواهد كثيرة إلى أن طريقة تشخيص المؤسسات الدينية الكبرى في الغرب لأصل الجائحة كانت أقرب إلى الاعتدال. فعلى سبيل المثال، ذكر تقرير قدم للبرلمان الفرنسي في شأن أشكال تفاعل الأديان مع جائحة كورونا، ذكر أن أغلب الزعماء الدينيين لهاته الأديان في فرنسا كما في العالم بشكل عام قد تصرفوا عموما ببراغماتية ومسؤولية كبيرتين (SENAT, 2020, **p. 24**). بل إن التقرير يذهب، على مستوى أكثر تفصيلا، إلى أن مختلف السلطات الدينية بفرنسا قد تبنت الخطاب العلمي في تفسير أصل الجائحة باعتبارها "مرضا معديا تنفسيا ذو أصل فيروسي قد يكون انتقل من الحيوان إلى الإنسان"...في نفس السياق، يؤكد أحد أهم الدارسين للشأن الديني بأوروبا، أوليفييه روا (OLIVIER ROY)، أنه على المستوى الرسمي فإن الأديان الكبرى (المسيحية، الإسلام واليهودية) قد تبنت، بأوروبا على الأقل، نفس منطق السلطات الصحية المدنية في تفسير أصل ومنبع الجائحة (**Roy, 2020**). وقد أبانت حالة انضباط المؤسسات الدينية هذه للتفسير العلمي للوباء الذي تتبناه السلطات المدنية في المجتمعات المعلمنة، أبانت على أن الأمر يتعدى مجرد "إعادة ما لقيصر لقيصر" والذي تمثل في التسليم بدور هذه السلطات المدنية في تدبير الوباء بل في "إعادة ما لأبوقراط لأبوقراط"؛ وهو الأمر الذي تمثل في التنازل عن الحق في تشخيص الوباء لذوي الاختصاص من الأطباء (**SENAT, 2020, p. 24**). غير هذه المواقف لا تلخص بالمطلق مجمل التعابير الدينية التي أنتجها زمن الجائحة خصوصا فيما يتعلق باستحضار مقولة الغضب والعقاب الإلهيين في تفسير أصل الوباء؛ في هذا السياق، يقدم أوليفييه راوا مجموعتين ناقضتا حالة الإجماع هذه ونزعتا نحو التقليل من قيمة الوباء والخطر المنتظر منه من جهة معتبرة إياه، قبل ذلك، عقابا إلهيا للبشر الآثمين من جهة أخرى.

تخترق المجموعة الأولى، وهي أقلية، المجال الديني الأكثر تنظيما وهيكلة وارتباطا بصنع القرار السياسي وتتألف من مجموعة من القيادات الدينية الإنجيلية التي كانت مقربة من الرئيس دونالد ترامب، من قبيل القس الأمريكي جيري فالويل (صاحب السوابق في وصم مرضى السيدا بالشر واستحقاق العقاب منذ الثمانينات)، إضافة إلى الرئيس البرازيلي جايير بولصونارو (Jair Bolsonaro) ودائرة مستشاريه الدينيين. ويندرج ضمن هذه المجموعة أيضا، حسب روا، فريق موقع الصالون البيج (Le salon beige) بفرنسا، وهو موقع إلكتروني متنفذ يتم من خلاله

تصريف مواقف رجال الدين الكاثوليك الأكثر تطرفا بفرنسا بخصوص بعض القضايا الخلافية كالإجهاض وزواج المثليين ومجمل قضايا تدبير التعددية الدينية وحضور الدين في الفضاء العام.

كما يصنف روا ضمن هذه المجموعة أيضا، وزير الصحة ثم الإسكان الإسرائيلي المستقيل الحاخام اليهودي المتطرف ياكوف ليتزمان (Yaakov litzman) والذي أقيل/استقال من وزارتين مرتين في ظرف بضعة أشهر ارتباطا بمواقفه الدينية المتشددة من الوباء وكيفية تدبيره. أما المجموعة الثانية فهي أكثر ارتباطا بالأوساط الدينية الشعبية وتضم من يسميهم أوليفييه روا بنادي أنبياء البؤس (les Prophètes du malheur). ويضم هذا النادي، بحسب الباحث الفرنسي، مجموعة من المتطرفين الكاثوليك بالإضافة إلى بعض الملالي الشيعة والدعاة السلفيين والحاخامات اليهود (نفس المرجع). ويشترك أفراد النادي على اختلاف انتماءاتهم الدينية في رد الوباء إلى مقولة الغضب الإلهي بما يتوافق والجزء الأول من خطاطة الباحث الأمريكي أولستر لتمثل الأديان التوحيدية التاريخية وفي مقدمتها المسيحية لأصل الوباء (الإثم_العقاب)

على مستوى آخر، بدا وكأن تراجع الترويج، العلني على الأقل، لمقولة الغضب والعقاب الإلاهيين لم يكن متوازيا بالضرورة مع تراجع فكرة التماس الخلاص في العودة إلى الدين عن طريق رفع وثيرة الممارسة الدينية الجماعية منها على وجه الخصوص حتى في حال الإقرار بضرورة الالتزام بالتدابير الصحة العلمية من قبل جميع الناس، بمن فيهم مؤسسات الدين ورجاله. هذه الفكرة التي تصطدم، كما بينا ذلك أعلاه بفكرة أكثر صرامة بالمعنى العلمي تعتبر بموجبها التجمعات البشرية الكبرى على اختلاف أنواعها (رياضية، فنية، عائلية، دينية...)[§] بمثابة مصدر مباشر وفعال لانتشار العدوى في زمن الوباء. وفق هذا المنطق، ستصنف تجمعات دينية نظمت بشتى أنحاء العالم في خانة أكثر المسببات للعدوى خصوصا وأن طبيعة هذه التجمعات وشكل الطقوس التي تؤدى بها في مختلف الأديان تجعل من السهل تحولها إلى بؤر وبائية داخل الفئة المجتمعة أولا، ثم على امتداد المجتمع بعد تفرقها. ففي ميلهوس بفرنسا مثلا، ذكرت وسائل إعلام أن تجمعا لحوالي 2500 من الإنجيليين في أسبوع للصلاة ما بين 17 و24 فبراير 2020 إلى انتقال العدوى إلى آلاف من المجتمعين وممن خالطهم بما سيحول المنطقة إلى بؤرة للوباء (Le Figaro, **29/05/2020**).

[§] على هامش جائحة كورونا مثلا، اعتبر متتبعون لظروف انتشار الوباء بين الدول الأوروبية مباراة في كرة القدم جمعت يوم 19 فبراير 2020 بين فريقي بيرغامو الأيطالي فلانسيا الإسباني بمدينة ميلانو الإيطالية، بمثابة قنبلة فيروسية أغرقت شظاياها البلدين (إيطاليا اسبانيا) معهما أجزاء أخرى مهمة من القارة في موجة تفشي شديدة للفيروس.

في نفس الاتجاه، سيصنف الصحفي الألماني جوناثان كاي (Jonathan Kay) 9 أنشطة ذات طابع ديني و5 جنائز ضمن لائحة أعدها وتضم 54 من الأنشطة التي ساهمت بشكل كبير في تفشي انتقال العدوى في بلاده في الأشهر الست الأولى من سنة 2020 فيما يتوزع 19 تجمعا آخر على حفلات مسائية ومهرجانات وحفلات زواج أو أعياد ميلاد (Mayer, 2020).[**]

غير أن إدراج التجمعات الدينية من قبل السلطات المدنية المهتمة بتدبير الوباء في نفس لائحة التجمعات المدنية، سياسية كانت أو رياضية أو احتفالية بشكل عام واعتبار أمكنة إقامتها (الكنائس، المساجد، المزارات وأماكن الحج الديني...) على نفس الدرجة من الخطورة مع أماكن إقامة الأنشطة المدنية (مؤسسات مدنية، ملاعب رياضية، قاعات احتفالات، علب ليلية...)، هذا الأمر، وإن كان يستقيم مع المنطق العلمي التقني فهو، كما أشرنا لذلك أعلاه، أبعد ما يكون عن الإقناع بالنسبة للذهنيات المتشبعة بالمنطق الغيبي الماورائي الذي يتحكم في المنطق الديني بدرجات مختلفة. فإذا كانت إقامة الأنشطة المدنية تعد من قبيل الترف المبالغ فيه في زمن الوباء، فإن إقامة الأنشطة الدينية طلبا للطمأنينة والخلاص هو ضرورة قصوى بالنسبة للذهنيات المؤمنة في نفس هذا الزمن.

وإذا كان اعتبار أمكنة إقامة الأنشطة المدنية مجالا لانتشار العدوى أمر مما لا مجال للتشكيك فيه من قبل الأفراد متدينين كانوا أو غير متدينين، فإن تطبيق المنطق الصارم نفسه على بيوت الآلهة أمر لا يستقيم والمنطق الداخلي للأديان الذي يعتبر هذه الأمكنة مجالا للخلاص لا للمرض وانتشاره. وعلى مشارف هذا التقابل تولد إحدى أهم الإشكالات التي تفرض نفسها على مدبري الشأن الصحي في زمن الوباء بالمجتمعات المعلمنة على نحو خاص والتي تتعلق بضمان سلامة الأفراد والجماعات بالتوازي مع عدم سلبهم حقهم في ممارسة ما يعتقدونه وفق ما يعتقدونه.

2.2. التقني البارد في مواجهة الماور ائي الدافئ

تجدر الإشارة إلى أن محاولة الإحاطة بالتعبيرات المنتجة على هامش قرارات السلطات المدنية بمنع الأنشطة الدينية وإغلاق دور العبادة تتطلب منا، كما كان الأمر في التعامل مع إشكالية تمثل أصل الوباء، الفصل بين مواقف المؤسسات الدينية المهيكلة والمركزية من جهة وتعبيرات الأوساط

[**] قدمت هاته السياقات لجريدة شارلي إيبدو المثيرة للجدل مجالا لممارستها هوايتها المثيرة في السخرية من الأديان وممثليها، فنشرت بتاريخ 1 أبريل 2020 ملفا من إعداد الصحفية إينا شفشينكو (INNA SHEVCHENKO) يحمل عنوان: فيروس كورونا: الرب عامل عدوى شامل، جاء في مقدمته: "هل سبق لكم أن قمتم بلعق مكان مقدس، شرب بول بقرة أو التجمع مع مئات من الأشخاص في غرفة واحدة لتلاوة تعويذات، بدل أن تضعوا أنفسكم في الحجر حتى لا تصابوا بفيروس كورونا؟ بينما يعمل العلماء السياسيون بقوة من أجل مكافحة جائحة كوفيد-19، يواصل الزعماء الدينيون القيام بما يبرعون دوما في فعله، تعريض الأشخاص للخطر" (Charlie Hebdo,avril, 2020).

الدينية الأقل رسمية والأقل هيكلة والتي تضم فئات من المتدينين وقياداتهم الدينية الأكثر قربا منهم (رهبان كنائس محلية، أئمة مساجد، دعاة ووعاظ شعبيون...). بشكل عام، بدا وكأن تعبيرات المؤسسات الرسمية المهيكلة في مختلف الأديان الكبرى قد وصلت إلى درجة التماهي مع متطلبات المرحلة كما أملتها السلطات المدنية††. هكذا امثلت سلطات الفاتيكان للقرارات المدنية وألغت صلواتها الأسبوعية التي كانت تقام بقيادة البابا نفسه كما أجلت بسنة واحدة أهم تجمعين دينيين كانا مبرمجين من قبل الكنيسة الكاثوليكية خلال السنتين القادمتين والمتمثلين في اللقاء العالمي للعائلات والأيام الدولية للشباب. في نفس السياق، أغلقت أمكنة حج ومزارات مهمة عبر العالم تقع في مجملها تحت تدبير الدول وألغيت مواسم حج مهمة كموسم الحج للكعبة بمكة، والذي يشكل الركن الخامس من أركان الإسلام بل وأحد أهم مصادر الشرعية الدينية والرفاه المالي للدولة السعودية.

وعلى مستويات أدنى من الأهمية، مع الاحتفاظ بطابع الرسمية والارتباط بسياسات السلط المدنية، قبلت معظم الطوائف الدينية الرسمية، بمناطق أغلبيتها كانت أو ببلدان المهجر التي تمثل فيها أقلية، قبلت بقرارات إغلاق دور العبادة وإلغاء الطقوس التعبدية الجماعية. بالإضافة إلى ذلك، فقد دعا عدد كبير من رجال الدين ومؤسساتهم أتباعهم بضرورة اتباع المعايير المحددة من قبل الهيئات الصحية المدنية حتى حين وصل الأمر إلى إغلاق دور العبادة ومنع الممارسات الدينية الجماعية. بل وتسلحت مختلف المؤسسات الدينية بترسانة من أدوات الإقناع المستمدة من مبدأ تتوافق عليه الأديان التوحيدية الثلاث والذي يقول بعدم جواز تعريض حياة الأنا أو حيوات الآخرين للخطر. مع العلم، وفق ما يرى روا، أن هذا المبدأ هو أخلاقي وليس بالضرورة ديني لأنه متبنى من قبل غير المتدينين أيضا (Roy, 2020).

†† نسجل رغم ذلك شذوذ بعض الشخصيات الدينية المهمة والمسيسة عن الإجماع بخصوص التقيد بالإجراءات الاحترازية المفروضة من قبل السلطات المدنية. في هذا الإطار نذكر إقالة استقالة رجل الحاخام اليهودي المتطرف ياكوف ليتزمان من وزارتي الصحة ثم الإسكان. ففي شهر أبريل 2020 تمت إقالته من منصبه كوزير للصحة بعد أن أبان عن استهتار كبير بالمرض معربا بأن معرباً عن اعتقاده بأن «المسيح المنتظر» (همشياح) سيشفي الناس من «كورونا» قبل عيد الفصح العبري، بل إنه قام بخرق التعليمات الصحية التي أقرتها الدولة لينتهي به المطاف مصابا بالفيروس††. في شتنبر 2020، سيعلن الوزير الزعيم الديني المتشدد استقالته بسبب نية الحكومة فرض إغلاق شامل لأسبوعين تزامنا مع الأعياد اليهودية، في محاولة لاحتواء فيروس كورونا المستجد معربا عن أسفه إدانته لما أسماه " ظلم وتجاهل لمئات الآلاف من المواطنين المتدينين"، الذين لن يتمكنوا من الصلاة في الكنس اليهودية خلال احتفالات رأس السنة العبرية ويوم الغفران.

في المغرب، البلد حيث يشتبك الديني بالسياسي بتأطير من دستور الدولة[##]، توجهت الدولة باعتبارها، نظريا على الأقل، الفاعل الديني الرئيسي في البلاد، لتنشيط أجهزتها الدينية التي أصدرت في زمن قياسي قدرا غزيرا من الفتاوى التي تيسر آليات عمل الدولة وتمهد لقبول قراراتها الدينية غير الاعتيادية بل واقتراح بدائل لأشكال الآداء الاعتيادية لبعض العبادات من قبيل صلوات التراويح الليلية الجماعية وأشكال تنظيم إخراج زكاة الفطر في آخر رمضان. هكذا جاء في فتوى للمجلس العلمي الأعلى الذي يترأسه الملك-أمير المؤمنين شخصيا، صدرت بتاريخ 16 مارس 2020، بخصوص الإغلاق المؤقت إغلاق للمساجد ارتباطا بالجائحة:

بناء على طلب الفتوى الموجه إلى المجلس العلمي الأعلى من أمير المؤمنين، حفظه الله، وهو الذي تشهد الأمة على رعايته لبيوت الله وتعلقه بها وحرصه على الزيادة منها وفتحها للمصلين؛

ونظرا للضرر الفادح الناجم عن الوباء الذي يجتاح العالم؛

واعتبارا لما صدر من توجهات من الجهات المختصة، بما فيها وزارة الصحة، بهدف الحرص على الوقاية من الفيروس بإغلاق أماكن عمومية وخصوصية؛

واستلهاما من نصوص الشرع التي تؤكد على ضرورة حفظ الأبدان، وعلى تقديم دفع المضرة على جلب المصلحة؛

وعلما بأن من شروط الصلاة، ولاسيما في المساجد، حصول الطمأنينة، وحيث إن الخوف من هذا الوباء ينتفي معه شرط الطمأنينة.

لكل هذه الاعتبارات الشرعية والعقلية الاحترازية؛ فإن الهيئة العلمية للإفتاء بالمجلس العلمي الأعلى تفتي بما يلي:

ضرورة إغلاق أبواب المساجد سواء بالنسبة للصلوات الخمس أو صلاة الجمعة، ابتداء من هذا اليوم الاثنين 16 مارس عام 2020 الموافق لـ 21 رجب 1441 هـ؛

طمأنة المواطنين والمواطنات بأن هذا الإجراء لن يستمر. وستعود الأمور إلى نصابها بإقامة الصلاة في المساجد بمجرد قرار السلطات المختصة بعودة الحالة الصحية إلى وضعها الطبيعي؛

وجوب استمرار رفع الأذان في جميع المساجد.

وبعد ثلاثة أشهر من البيان الأول (10 يونيو 2020)، والتي شهدت فيه البلاد أشكال متعددة من الاحتجاجات حول قرار الإغلاق، ستضطر الأجهزة الدينية الرسمية لإصدار بلاغ-فتوى آخر، يؤكد الفتوى الأولى ويدعمها، جاء فيه:

[##] ينص الدستور المغربي (2011) على أن الإسلام دين الدولة (الفصل 3) بل ويمنح الملك لقب أمير المؤمنين (الفصل 41).

يؤكد المجلس العلمي الأعلى أن إعادة فتح المساجد ستتم، في الوقت المناسب، بتنسيق كامل مع وزارة الصحة والسلطات المختصة، مع أخذ تطور الحالة الوبائية ببلدنا بعين الاعتبار؛ وذلك استنادا للاعتبارات التالية:

أولا: أن صلاة الجماعة في مذهبنا المالكي تكون بإقامة الصف دون تباعد ولكن بلا تشدد ولا تكلف؛

ثانيا: أن من شروط الصلاة الطمأنينة العامة وعدم التخوف من وقوع ضرر بسبب الاجتماع لها؛

ثالثا: أن الصلاة مبنية على اليقين ولا يجوز أن يصاحبها أي نوع من أنواع الشك، للحديث الصحيح: "دع ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك"؛

رابعا: أن تدخل السلطات العمومية في الأماكن العامة لمراقبة إجراءات الاحتراز من الوباء، تَدَخُّلٌ لا يمكن تصوره في المساجد، وعددها يزيد عن خمسين ألف مسجد؛

خامسا: أنه سيكون من المحرج للجميع، لو وقع فتح المساجد في الوضع الراهن، أن يصاب أشخاص في الأيام المقبلة، لا قدر الله، وينشرون بدورهم العدوى بين المصلين؛

سادسا: أن استمرار إقامة الصلاة في المنازل للضرورة لا يحرم المصلين من أجر إقامتها بالمساجد، لأن الأرض كلها مسجد، لقوله صلى الله عليه وسلم: "وجُعلت لي الأرض مسجدا"

وارتباطا يشهر رمضان الذي تزامن مع فترة الحجر الصحي الأولى، أصدرت الأجهزة الدينية الرسمية فتويين تتعلق الأولى بشرعية إقامة صلاة التراويح بالبيت والتي جاء فيها:

...رابعا: أن العمل مع الله، مهما كان نوع هذا العمل، لا يَسقطُ أجره بعدم الاستطاعة حتى ولو كان العمل فرضا، مثل الحج، وكذلك الأمر في مختلف رُخَص الشرع، فبالأحرى ألا يسقط الأجر فيما انعقدت عليه النوايا وتعذر عمليا من أعمال السنة، ومنها صلاة التراويح وصلاة العيد؛

خامسا: أن عدم الخروج إلى صلوات التراويح قد يعوضه إقامتها في المنازل فرادى أو جماعة مع الأهل الذين لا تُخْشى عواقب الاختلاط بهم، ومعلوم شرعا أن الجماعة في الصلاة ما زاد عن الواحد.

سادسا: أن استحضار الرضا بحكم الله تعالى من شأنه أن يَحمي من أي شعور مخالف للأحكام المشار إليها.

فيما تتعلق الثانية بشرعية إقامة صلاة عيد الفطر بالبيوت وليس بالمساجد والمصليات كما جرت العادة، وقد جاء فيها:

نص علماء المذهب المالكي وغيرهم على سنية إقامتها في المنازل والبيوت على الهيأة المشروعة، حال فوات صلاتها في المصلى أو في المسجد مع الجماعة، أو حال تعذر إقامتها فيهما لداع من الدواعي الاجتماعية في بعض الأوقات والأحوال، كما هو الأمر والحال في الظروف الراهنة الصعبة التي يجتازها المغرب وغيره من البلاد جراء تفشي وباء كورونا (كوفيد 19) وانتشاره، فلا تصلى حينئذ لا في المساجد ولا في المصليات، وإنما في المنازل والبيوت، مع الأخذ بسنية الاغتسال والتطيب والتكبير قبل الشروع فيها. كما يستفاد ذلك مما جاء عند الإمام البخاري في باب: "إذا فاته العيد صلى ركعتين"، ونص عليه فقهاء المذهب المالكي.

وذلك لغاية الحفاظ على سلامة نفوس المواطنين وصحة أبدانهم من آفة انتشار العدوى بهذه الجائحة الفتاكة، عملا بالآية الكريمة: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، والقاعدة الفقهية: «الحفاظ على الأبدان مقدم على الحفاظ على الأديان"، ورجاء حصول الأجر والثواب لمن صلاها في بيته منفردا أو مع أهله وعياله، كمن صلاها في المصلى أو في المسجد مع الجماعة في الظروف الاعتيادية، و"الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى".

وتعكس هذه الفتاوى في مجملها سعيا من المؤسسات الدينية الرسمية للدولة نحو توجيه المؤمنين/المواطنين إلى التعاطي مع الجائحة وفق المنطق العلمي، على الرغم من أن هذا التوجه قد تمت صياغته وإخراجه تحت جبة الديني، سواء من حيث تضمينه في فتاوى دينية، أو من حيث استناده إلى تبريرات دينية من النصوص المقدسة للإسلام.

في مقابل ذلك، وضمن ما يؤكد نجاعة مبدأ الفصل بين مواقف المؤسسات الرسمية وغير الرسمية الذي ننتهجه في قراءة المواقف المختلفة، سيعيد مجموعة من الدعاة الأقل ارتباطا بالأوساط الرسمية سؤال تمثل الدين في المجتمعات الأقل أو الأكثر علمنة إلى مربع البداية من خلال رفع شعار المظلومية الذي يشرعن سلوك العصيان تجاه قرارات السلطات المدنية. وضمن سيرورة العصيان هاته سيصل التعارض بين المنطقين العلمي والتقني البارد من جهة والديني الماورائي الدافئ درجته القصوى. هكذا سيتعرض طابع المسؤولية الذي أبانت عنه أغلب المؤسسات الدينية الرسمية لبعض التشويش في الأوساط الأقل تنظيما وهيكلة خصوصا من قبل المنتمين لبعض الطوائف الموسومة بالتطرف في مختلف الأديان ممن يسميهم أوليفييه روا، نادي أنبياء الشر.

ولعل الملفت للانتباه أن إحدى أهم هذه التعبيرات وأكثرها وضوحا وانتشارا على المستوى الإعلامي إضافة إلى تموقعها ضمن أحد أكثر المجالات الزمنية حساسية بالنسبة لسيرورة تدبير الوباء على المستوى العالمي (بداية شهر مارس حين كانت أغلب دول العالم تستعد لإغلاق كل شيء وأي شيء) سجلت في فرنسا. ويتعلق الأمر بنص منشور لأسقف بيلي-آر باسكال رولان (Pascal Roland) يقدم بوضوح شديد المنطق الحجاجي الداخلي لمن يرون بأن تدبير الوباء لا ينبغي أن يسند حصرا للأنظمة الصحية المدنية، وأن اعتبار أماكن العبادة والتجمعات الدينية بمثابة أماكن مؤكدة لانتشار العدوى، هو أمر لا يتوافق والمنطق الداخلي للدين الذي يعتبر هذه التجمعات وهذه الأماكن طريقا للخلاص والشفاء (Roland, 2020). فيما يلي ترجمة لبعض فقرات هذا النص الذي أثار موجة سخط كبيرة بفرنسا دعت صاحبه إلى سحبه، لكنه بقي مع ذلك منشورا على مواقع إلكترونية مسيحية تصرف بها عادة مواقف متطرفة إزاء تصور الدولة لحضور الدين في الفضاء العام بفرنسا.

يجب أن نخشى من وباء الخوف أكثر مما نخشى من وباء كورونا. من جهتي، أرفض الاستسلام للذعر الجماعي والخضوع لمبدأ الاحتراز الذي يبدو أنه يحرك المؤسسات المدنية. لذلك لا أنوي إصدار تعليمات محددة لأبرشيتي: هل سيتوقف المسيحيون عن التجمع للصلاة؟ هل سيتخلون عن التواصل مع زملائهم ومساعدتهم؟ بصرف النظر عن الاحتياطات الأساسية التي يتخذها الجميع بشكل عفوي حتى لا ينقلوا العدوى للآخرين عندما يمرضون، فلا ينصح بإضافة المزيد.

علينا بالأحرى أن نتذكر أنه في المواقف الأكثر خطورة، تلك التي حدثت أثناء موجات الطاعون الكبيرة وحيث لم تكن الوسائل الصحية كمثل التي هي متوفرة اليوم، فقد انتهج المسيحيون طريق الصلاة الجماعية، وإنجاد المرضى، ومساعدة المحتضرين ودفن الموتى. باختصار، لم ينعطف أتباع المسيح عن الرب ولم ينقلبوا إلى غيره. على العكس تماما!

أنا أبعد ما يكون عن فكرة انتهاج غلق الكنائس، إلغاء القداسات الدينية، التخلي عن علامات السلام أثناء تقديم القربان المقدس وفرض هذا الإجراء أو ذلك لاعتبارات صحية...لأن الكنيسة ليست مكانا للخطر بل هي مكان للخلاص. إنه المكان الذي نستقبل فيه هذا الذي يجسد الحياة، يسوع المسيح، وحيث من خلاله ومعه وفيه نتعلم معا كيف نكون أحياء. إن الكنيسة ينبغي أن تكون ما هي عليه: مكان للرجاء. في نهاية المطاف لا ينتمي المسيحي إلى نفسه، فحياته ممنوحة لأنه يتبع يسوع الذي يعلم: " فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا"(مرقس 8:35). المسيحي لا يعرض نفسه للخطر بلا داع، لكنه لا يسعى إلى الحفاظ على نفسه

أيضًا. باتباع معلمه المصلوب وربه، يتعلم المسيحي أن يهب نفسه بسخاء في خدمة إخوته الأكثر ضعفًا، في سبيل الحياة الأبدية" (نفس المرجع).

إن أهمية هذا النص لا تكمن فقط في طريقته المبسطة والواضحة في عرض المنطق الديني الغيبي في مواجهة المنطق العلمي والتقني، بل في تماهي بنائه الحجاجي مع ما تقترحه مواقف وتعبيرات رجال دين خارج فرنسا بل وخارج دائرة المسيحية. ففي إيران حيث تحتل زيارة مراقد الأئمة مكانة مركزية في عمق الإسلام الشيعي، نشرت على وسائل التواصل الاجتماعي صورا ومقاطع مسجلة تُظهر بعض الإيرانيين وهم يقبلون الأضرحة الشيعية بل ويلعقونها في جميع أنحاء البلاد، رغم المناشدات بضرورة إغلاقها، وسط تفشي عدوى الفيروس في البلاد.

ومن ضمن المقاطع المتداولة على نطاق واسع، يوجد مقطع لشخص يظهر فيه وهو يقبل جدران ضريح "فاطمة المعصومة" في قم، بل ويهاجم فيه الأفراد الذين توقفوا عن زيارة الضريح بسبب تفشي المرض، قائلا: "توقفوا عن التلاعب بمعتقدات الناس، ليس هناك فيروس في الأضرحة الشيعية". وارتباطا بالإسلام الشيعي أيضا، انتشرت أغنية مصورة بالعراق لأحد المنشدين الدينيين البارزين، وهو حيدر البياتي، تقول بعض كلماتها:

لم يمنعنا البعث من زيارته فلا والله لن تمنعنا كورونا...نملك عقيدة لم يألفها المرض...نلوذ بقبور آل النبي فتشفينا...رغم الوباء المخيم علينا...الشيعي الحقيقي لا يعاف حسينه...تراب أهل البيت يشفيه...من يجاور أهل النبي يحفظوه...لا والله لن تمنعه كورونا...وقت الشدائد باب المراد نظيفة...من يعتصم به يخيف الوباء...المرض لا يصل إليه...الكاظم كريم ولا يتسبب في مرض ضيفه...الكاظم نزوره مثل الأمواج...من المرض لا تخاف الأفواج...بكل الظروف نحن نظل نحتاج إليه...نحن لدينا حاجات وهو باب الحاجة...لا والله لن تمنعنا عنه كورونا...كورونا لو كانت بي أزوره فأشفى...الذي عنده علي لا يتذلل لمستشفى...وصفة علاج كورونا بعمامته".

في نفس هذا السياق، توالت حالات العصيان الديني التي تبرر موقفها وفق منطقها الديني الخاص. هكذا أصرت طوائف دينية كثيرة عبر العالم على تحدي قرارات السلط المدنية بمنع التجمعات بكل أشكالها والتجمعات الدينية في مطلعها لتفادي انتشار العدوى بشكل سريع. ففي الهند مثلا، نظمت طائفة هندوسية متطرفة تجمعا ضم ملايين الأتباع ما بين يومي 13 و15 مارس 2019، مع العلم أن أغلب دول العالم كانت قد تبنت الحجر الشامل في هذا التاريخ بالضبط متسببة بذلك في تشكل بؤرة وبائية كبيرة. وقد وصل الأمر ذروته في رفض قرار إغلاق المساجد في بعض

البلدان من قبيل الباكستان التي ظلت بها المساجد مفتوحة لصلوات الجمعة رغم القوانين الصادرة بإغلاقها.

بل وحتى في المغرب والذي يتميز فيه، كما أسلفنا ذلك، الشأن الديني بمركزية شديدة مكنت الأجهزة الدينية من التفاعل بفاعلية كبيرة وفق منطق أقرب إلى التدبير المدني التقني، حتى وإن تمت صياغته في لبوس ديني (الفتاوي الواردة أعلاه)، تصدى بعض رجال الدين عبر قنوات تواصلهم لتحديد طريق الخلاص في التوبة والاستغفار الجماعيين. وقد وصل الأمر في مدينتي طنجة وفاس شمال ووسط البلاد إلى خروج مواطنين، ليسوا محسوبين بالضرورة على تيارات دينية منظمة ومتشددة، في مسيرات حاشدة ابتهالا وتضرعا إلى الله ليرفع البلاء (القدس العربي، 22 مارس 2020)، في تحد صارخ لكل إجراءات الحجر الصحي المفروضة من قبل الدولة، فانتهى المطاف ببعضهم في السجن، بينما صرح بعض المشاركين في المسيرة لبعض مراسلي المواقع الإلكترونية فيما بعد بأن المرض لا يمكنه أن ينتقل إلى الإنسان وهو في حالة تضرع إلى الله. في هذا الخضم، اضطرت الدولة لتوقيف ومحاكمة داعية سلفي (عبد الحميد أبو النعيم)، بتهمة التحريض على العنف بعد أن صنف البلاد بأكملها في خانة دار الكفر بل ودار الحرب، ردا على قرار إغلاق المساجد.

باختصار، لقد أعادت جائحة كورونا النقاش المعلن والخفي حول العلاقة بين الديني والصحي في البلدان الأقل أو الأكثر علمنة إلى مربعها الأول بعد أن انهارت مختلف الأشكال التي أنتجتها التوافقات في مرحلة ما قبل الوباء. في هذا السياق، يؤكد الفيلسوف الفرنسي المهتم بالأديان بيرتراند فيرغلي (Bertrand Vergely) أن الوباء في زمن العلمنة قد خلق أزمة شرعية بين القانون الديني من جهة والقانون السياسي من جهة أخرى (Khouri, 2020). ففيما نجد القانون السياسي يهمين على كل شيء وفق منطق الدولة العلمانية الحديثة، نجد القانون الديني يمر وفق عقلية المؤمن قبل كل شيء. وفي كثير من الأحيان، حتى في المجتمعات الأكثر علمنة، بدا وكأن التوافق القائم بين القانونين الديني والسياسي والقاضي بحصر الممارسة الدينية في أمكنة العبادة فقط، قد سقط تحت طائلة تدابير المنع والمراقبة التي تخطت أسوار أمكنة العبادة هاته المرة.

خاتمة:

تضع الأوبئة والجوائح البشر في مواجهة هشاشتهم الطبيعية من جهة، وكذا الوجودية من جهة أخرى، بما ينتج سياقا مفعما بالخوف واللايقين. هذا السياق، يمثل المجال الأمثل لتدخل الأديان وتحولها ليس فقط إلى مجيب عن الأسئلة المحيرة التي تتناسل في زمن الوباء، بل إلى ملاذ للخائفين والضائعين والباحثين عن المعنى، بغض النظر عن تمثل أصل الوباء المتأرجح ما بين الإلهي

والطبيعي. وهكذا يصبح التماس المؤمنين الشفاء بالمعنى المادي أحيانا وبالمعنى الروحي غالبا، عبر التوجه نحو آلهتهم، يصبح أمرا مستعصيا على الإخضاع لمنطق التفاوض حتى في زمن العلمنة.

حتى في أكثر البلدان تطرفا في الفصل بين الديني والدنيوي هناك شبه إجماع اليوم، مفاده أن العلمنة لا تعني بالضرورة نهاية أو موت الدين بقدر ما تعني إخراجه من المجال السياسي أولا، ثم من الفضاء العام ثانيا، ومن ثمة إعادة توطينه في قلوب المؤمنين وخلف أسوار معابدهم باختلاف أشكالها. فهل طالب المتدينون بأكثر من احترام هذا المبدأ العلماني الراسخ حين تحصنوا بأماكن عبادتهم ورفعوا من وتيرة ممارسة طقوسهم الدينية طلبا للطمأنينة في زمن الوباء الذي يتميز من ضمن ما يتميز به بالضياع واللايقين؟ إن شرعية هذا السؤال نظريا على الأقل تمثل مأزقا حقيقيا لمن لايزالون مؤمنين بإمكانية إيجاد صيغ يهيمن فيها الدنيوي على الوجود الإنساني، دون أن يسحب ذلك من البشر حقهم في الاعتقاد بالأخروي وممارسة ما يُلزمهم به اعتقادهم هذا. فهل تشكل جائحة كورونا مدخلا جديدا نحو إعادة ترسيم الحدود بين بين الديني والصحي في المجتمعات المعلمنة؟

قائمة المصادر والمراجع:

Balzamo, N. (2020). « De la peste noire au coronavirus : l'Eglise face aux fléaux ». Entretien avec l'OBS. Disponible sur :
https://www.nouvelobs.com/societe/20200409.AFP5366/de-la-peste-noire-au-coronavirus-l-eglise-face-aux-fleaux.html, consulté le 20 mars 2021.

Chaouky, H. (2019). « Les hôpitaux et les lieux de soin dans l'Antiquité et au Moyen Âge » In Froment, A et Guy, H. (Edit), Archéologie de la santé, anthropologie du soin. Paris : La Découverte.

Delumeau, J. (1978). La peur en Occident XIV-XVIII siècles Une cité assiégée. Paris : Fayard.

Dericquebourg, R. (1998). « Sociologie des religions et des religiosités parallèles. Les groupes religieux minoritaires à vocation thérapeutique (religions de guérison) ». In École pratique des hautes études, Section des sciences religieuses. Annuaire. Tome 107, 1998-1999.

Dufour, S. (2017). « L'hôpital, ou la résurgence du religieux dans un sanctuaire laïc . In Delaye, R. Enrègle, Y. Lardellier, P.(Edit). Oser la laïcité ,Caen: EMS Editions.

Faure, O. (2013). « Médecine et religion : le rapprochement de deux univers longtemps affrontés ». *Chrétiens et sociétés*. Disponible sur : http://journals.openedition.org/chretienssocietes/3318, consulté le 2 mai 2021.

Freudenthal, G. (Edit). (1998). *AIDS in Jewish Thought and Law. New York.* KTAV Publishing House.

Gariépy, G. (2005). « Religion, pastorale et soins spirituels en milieu de santé», In Lefebvre, S. (Edit), La religion dans la sphère publique, Montréal : Presses de l'Université de Montréal.

Gauchet, M. (2001), La religion dans la démocratie, Paris, Folio essais.

Guilfoyle, J. (2012). « La religion dans les soins primaires Parlons-en ». College of Family Physicians of Canada. 58(3). e125–e127. Disponible sur : https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3303664, consulté le 2 mars 2021.

Harold, G. (2012). "Religion, Spirituality, and Health: The Research and Clinical Implications". International Scholarly Research. Network ISRN Psychiatry. Volume 2012. Disponible sur http://downloads.hindawi.com/archive/2012/278730.pdf, consulté le 5 mars 2021.

Khouri, Stéphane. (2020). « Le fait religieux à l'heure du coronavirus ». L'Orient du jour. 06 avril. Disponible sur : https://www.lorientlejour.com/article/1213407/le-fait-religieux-a-lheure-du-coronavirus.html, consulté le 2 mai 2021.

Lévy, JJ. (2013). L'apocalypse dans les représentations de l'épidémie du VIH/sida : du religieux au médiatique. Frontières. Volume 25. Number 2. Disponible sur : https://www.erudit.org/en/journals/fr/1900-v1-n1 fr01393/1024938ar/, consulté le 5 mai 2021.

Lorin, F. (2019). « Douleur, médecine et judaïsme ». psychiatriemed. Disponible sur : https://www.psychiatriemed.com/textes/41-dr-fabrice-lorin/151-douleur-et-judaisme-dr-fabrice-lorin.html, consulté le 20 mars 2021.

Lorin, F. « Pourquoi tant de médecins juifs ». Harissa. Disponible sur : https://harissa.com/news555/fr/pourquoi-tant-de-medecins-sont-juifs, consulté le 20 mars 2021.

Mayer, J-f. (2020). « Analyse : les Églises chrétiennes face au coronavirus — bilan intermédiaire et perspectives ». Religioscope. Disponible sur : https://www.religion.info/2020/04/26/analyse-les-eglises-chretiennes-face-au-coronavirus-bilan-intermediaire-et-perspectives/, consulté le 20 avril 2021.

Note à l'attention des membres de l'Office parlementaire d'évaluation des choix scientifiques et technologique. (2020). Les cultes religieux face à l'épidémie de Covid-19 en France. Disponible sur : http://www.senat.fr/fileadmin/Fichiers/Images/opecst/quatre_pages/OPECST_2020_0028_note_cultes_covid19.pdf, consulté le 2 mars 2021.

Olster, D. (1994). Roman Defeat, Christian Response, and the Literary Construction of the Jew. Philadelphie: University of Pennsylvania Press.

Paquet, C. (2014). « Les épidémies : dimensions culturelles et religieuses ». Agence Française de développement. Disponible sur : https://media.collegedesbernardins.fr/content/pdf/Recherche/2/recherche14-16/2014_11_18_EHS_developpement_cr.pdf, consulté le 5 mai 2021.

Philostrate. (2007). La vie d'Apollonius de Tyane. Traduction, introduction et notes par Chassang, A. Genève : Arbre d'Or.

Roland, p. (2020). « Epidémie-du-coronavirus-ou-épidémie-de-peur ? ». Disponible sur : http://www.nd-chretiente.com/dotclear/index.php?post/2020/03/04/Epidemie-du-coronavirus-ou-epidemie-de-peur&fbclid=IwAR3tMfg, qJA5ZmuxatcPskkDGszILligyOXMUtsqNZD8D0Th0LtLZZ3PHKY, consulté le 20 mai 2021.

Roy, O. (2008), La Sainte ignorance. Le temps de la religion sans culture, Paris, Le Seuil.

Roy, O. (2019), L'Europe est-elle chrétienne ? Paris, Le Seuil.

Roy, O. (2020) Le croyant est-il un consommateur comme un autre ?. Nouvelobs. 8 mai. Disponible sur : https://www.nouvelobs.com/idees/20200508.OBS28544/le-croyant-est-il-un-consommateur-comme-un-autre-par-olivier-roy.html, consulté le 5 juin 2021.

Schreiber, J-P. (2020). « La religion à l'épreuve de la pandémie ». Observatoire des Religions et de la Laïcité (ORELA). Disponible sur : https://o-re-la.ulb.be/index.php/rapports-sp-1746043843/item/3325-la-religion-a-l-epreuve-de-la-pandemie-de-coronavirus-fevrier-juin-2020, consulté le 2 juin 2021.

Shevchenko, I. (2020). « Coronavirus : Dieu, facteur de contamination massif ». Charlie Hebdo, édition 1445 du 1 avril. Disponible sur : https://charliehebdo.fr/2020/04/religions/coronavirus-dieu-facteur-de-contamination-massif/, consulté le 22 juin 2021.